

هَيْكَلُ الْعَظَمِ

لِفِيلسُوفِ الْهَنْدُونِ شَاكِرُهَا رَابِدُ رَانَاثَ
بِسَلَامِ الْأَسَاتِيدِ مُحَمَّدٍ كَامِلٍ حُجَّاجِ

الضئيلة الذي لا يلبث أن ينطق في كل ساعة من الليل أو النهار ؟
ولنداعى الفكر عاودنى ذكرى
الميكَل العظمى ، وبينما أنا أتصور
شكل الجسم الذى كان يكسو تلك
العظام ، شعرت أن شخصا يدور
حول سرى يسير متسكماً بجانب

الحائط ، ولقد شعرت بنفسه السريع ، وخيل إلى
أنه يبحث عن شيء لا يجده ويدور حول الغرفة
بخطى سريعة

ولقد خدعت في الحقيقة من شيء خلقه غي
المضطرب الذى حرم نومه ، وظننت أن وقع
الأقدام التى سمعتها ما هو إلا دقات شرابىنى في
صدغى ، ورغم ذلك شعرت بارتعاد مثالج ...
ولأطرد من غيلى هذا الهذيان صحت بأعلى صوتي :
« من هناك ؟ » فأحسست بأن الخطى وقفت بجانب
سرى وأجابني صوت : « أنا الطارق وقد أقبلت
لأختبر ميكلى العظمى »

ومن السخف أن يظهر الإنسان الملح والخوف
من خيال بسيط ، ثم اكتفيت بأن أضغط على
وسادنى وأصبح بالهجة مخالفة الأولى : « إن هذا
الشغل الذى اقتادك في مثل هذه الساعة من الليل
لمضحك ؟ وماذا يهمك هذا الميكَل العظمى »

ويظهر أن الجواب انبعث من كلتى نفسيهما :
« إن عظام هذا الميكَل قد أحاطت قلبى ورأت
محاسن شباب الخلافة في ريمها السادس والعشرين !
وكيف أقدم الرغبة الملحة في رؤيتها ثانية ؟ »

فقلت له بدورى : « إنها رغبة شرعية فتعهم بمحك
وأركنى لشأنى عساني أجد النوم »

كان في الغرفة المجاورة لغرفة نوم الأطفال
هيكَل عظمى معلق بقرع حينما تعبت به الريح وفي
النهار كنا نسر بالاصطدام به

وكان في هذا الوقت طالب من مدرسة الطب
بكامبيل يعلمنا تشرح العظام لأن أوصياءنا كانوا
يزعمون أنهم يتقشرون في عقوانا العلم النام .
ليت شعري لأي حد نبحجوا ؟ ولا حاجة لأن نقول
ذلك لن بمرقنا . والأفضل بلا شك أن نلتزم الصمت
أمام من يجهلنا

وقد كرت الأعوام واختفى الميكَل العظمى من
الغرفة كما اختفى تشرح العظام من ذا كرتنا دون
أن يترك أى أثر

ازدحم منزلنا أخيراً بالمعوزين فاضطرت أن
أقضى الليل في تلك الغرفة التى كان معلقاً بها الميكَل
العظمى وإلى انقضى الزمن الذى كنت آغها فيه .
حاولت النوم بكل وسيلة فلم أستطع ، أخذت أنقلب
وأعد دقات ساعة الكنيسة طوال الليل ... طفق
مصباحي يخرج لحظة ثم انطفأ ، وقد فقدت أسرتنا
بعض أعضائها حديثاً ، وهذا ما اقتاد فكرى نحو
الموت ...

سألت نفسي ألا يشبه نور المصباح الذى بقيه
في الظلمات من مسرح الحياة العظيم ضوء حياتنا

— أنعم إذن حديشي . ولقد عدت إلي بيت أبي بكل سرور . ولو إن البيثة التي كنت فيها ما كانت تشمر بشيء من محاسني لكنني كنت واثقة من أنني أحرز جلالاً رائماً نادراً . فما رأيك ؟
— هذا شيء معقول جداً ، ولكن لا تنسى أنني لم أرك قط

— قط ؟ وماذا تعمل بهيكل المظلي ؟ ها !
ها ! هذا لا يهم فاني أمزح

وكيف أجملك تتصور أنه كان في هذين التجويفين اللذين تجردا من لهما عينا سوداوان يتلاآن بأنواع السحر والفتنة ؟ أو أن الابتسام الذي كان يضيء هاتين الشفتين الورديتين لا يشبه في شيء هيئة الضحك العابس التي عرفتها ، وعند ما أذكر كل المحاسن والرشاقة ومثانة هاته الانحناءات التي كانت في شرح الشباب تتفتح كالأزهار فوق هذه العظام النخرة لا أستطيع أن أكرم ابتسامة . وإني لأنالم من ذلك . وهل يستطيع مشاهير العلماء في زمن أن يفرضوا أن عظام جسم مثل هذا تخصص لدراسة تشرح العظام ؟ واعلم أن طبيباً من الشبان المجاورين لنا شبهني بزهرة (الشمباك) الذهبية ؟

وحينما أمشي كنت أشعر بأن أقل حركاتي تفجر أمواجاً منسجمة تدبعت من كل صوب كالألاء اللامس . وكانت تمر على ساعات وأنا أشاهد في يدي اللتين كبلتا برشاقة الرجال الذين يتأجج فيهم نشاطهم

ولكن هذا الهيكل المظلي قد أخفى عنك الحقيقة كشهادة الزور ، ولم يكن في ميسوري أن أدحض تأكيداته الوخنة . إنني أشمر أني أحب
(٢)

فرد الصوت : « إخالك وحدك وأود أن أجالسك لحظة تنسأ فيها . لقد كان يسرنى أن أساجل الناس الحديث ولكنني لم ألتق في هذه الخمسة والثلاثين سنة الأخيرة إلا الأئين فوق نيران الموت ، وما أحيلى أن أحادث اليوم رجلاً مثل المهد السابق »

وقد شعرت أن شخصاً أقبل وجلس بجانب ستائري فاستسلمت واستعنت بتوددي قائلاً :

— ما أعظم ابتهاجي وسروري للسمر ولتبحث سويًا عن موضوع شائق نتحدث فيه ...

— إنى لا أجد موضوعاً مسلياً أعظم من قصتي الشخصية فعمل تسمح لي بسردها ؟

وقددت في هذه الآونة ساعة الكنيسة الثانية صباحاً

قال الصوت : « حينما كنت في عنفوان شبابي وكنت أقطن بين الأحياء سبب لي أحد الناس فزعاً ورعباً يفوقان رعب الموت : ولم يكن ذاك غير زوجي . وإني لا أجد ما أقارن به شعوري غير السمك الملق في سن الشخص فكان شخصاً أجنبياً علقني بشص عنيف وانتزعني من دار طفولتي السعيدة حتى كنت لا أستطيع أن أفكر في الخلاص ولقد مات زوجي بعد الزفاف بشهرين بينما كان أقاربى وأسدي قاتلي يكون بكاء صراً لحظي التمس المنكود . وفي ذات يوم قال حي لحاتي بعد ما أطلال النظر إلى وجهي : « ألا ترين أن زوج ابنتا لهما عين سوء صائبة حاسدة ؟ » هل أنت مصغ إلى ؟ وهل يهمك حديشي ؟

— يهمني جداً وإن أوله ليدل على أنه شائق
مس ١

فأجبت وقد سبقت لساني زفرة :

« وددت لو كنت شيكهار ! »

— انتظر قليلاً وأصنع أولاً لآخر الحديث ،

وفي ذات يوم مطير أصابتنى الحمى فجاء الطبيب

يعودنى ، وكانت هذه أول محادثة جرت بيننا .

كنت راقدة أمام النافذة وقد لطف ضوء الشمس

عند غروبها بياض لوني ، وحينما نظر إلى الطبيب

وضعت نفسي مكانه وطفقت أنظر إليه مفرقة في

التصور والتأمل ، وشاهدت وجهي الشاحب في

ضوء الأسفل موضوعاً فوق الوسادة البيضاء كزهرة

ذابلة وحلقات شمري الحلقى تمبث بجيبتى بينا أجفاني

مطرقة باستحياء ناشرة ظلاً مبرأً فوق سحتنى

سأل الطبيب أخى والحياء يلغم لسانه وينخفض

من صوته : « أسمح لى أن أجس نبضها ؟ »

« أخرجت من تحت الفطاء قبضة مستديرة

مدنفة ولاحظت حينما تفرست فيها أنها عاطل من

سوار الصغير ! »^(١)

لم أر فى حياتى أجهل من هذا الطبيب فى جس

النبض . كانت أصابعه ترتعد حينما تمس ذراعى ، فإن

قاس درجة الحمى فى جسمى فإنى شمريت بدقات

قلبه وقستها من أصابعه — هل وعيت حديثى ؟

فقلت : بكل سهولة ، إن دقات قلوبنا تعبر عن

أفكارنا

— وبعد عدة وعكات وكثير من الشفاء

والعافية وجدت أن عدد الفتونين الذى يؤمون

بلاط حبي الخيالى آخذاً فى النقص حتى انتهى إلى

فرد واحد وفى النهاية استحال عالمي الصغير إلى

طبيب ودنفة

(١) من عادات الهنود أن الأيبي لا يلبس غير الثياب

البيضاء ويكن عاطلات من الحلى

أن أطرد الناس من عينيك إلى الأبد بأن أستحضر

أمامك الصورة الوردية الحية لجالى بحيث أحو من

أمامك كومة المعظام المشوومة التى تملأ ذهنك

— كنت أستطيع أن أقسم بجسمك إذا كان

لم يزل حياً ، ولو أنه لم يترك منه أى أثر من المعظام

لكن عقلى قد افتنى بالصورة الوضاعة للجمل كامل

يظهر بهاءه بقوة التضاد هذا الليل الفاحم الذى

يحيط بها ، وإنى لا أقدر أن أقول أكثر من هذا

— استمر الصوت فى حديثه قائلاً : لم تكن لى

صاحبات لأن أخى الوحيد صمم على عدم الزواج .

كنت وحدى فى خدرى ، وقد اعتدت أن أستاقى

فى الحديقة فى ظل شجرة ، وكانت الأحلام

تستدرجنى فى يقظتى حتى خلت أن العالم كله قد

شغفه حبي وأن الدرارى التى ما فتئت مستيقظة على

الدوام انتمل من نشوة بهائى ، إن الصبا لتتمد حينما

تذجل لها عذراً لتمسح بى بمناجها . وإن داست

قدمي^٢ مرجاً فإن مجرد اللبس يفقده رشده . وإن

فتيان العالم بظهورون أسمى كأنهم أعواد الكلال

تحت قدمي^٣ ، ولا أدري لأى سبب يلزمنى الحزن

والسكابة

وحينما تخرج شيكهار صديق أخى من مدرسة

الطب أصبح طبيب أسرتنا ، وقد لمحنه عدة مرات

مختبئاً وراء ستار . وكان أخى رجلاً غريب الأطوار

لا يهتم بالنظر إلى العالم الخارجى ، وكان بوده ألا تكون

الدنيا مقفرة ويبتعد بالتدرج إلى أن يقبع فى ركن

مظلم ، كان شيكهار صديقه الوحيد الذى أتاحت لى

الفرص مقابلته ، وفى بلاط الفتونين بحبى الذى كنت

أخيله فى أوقات نزهتى الليلة كان كل شاب مشفت

الفكر عند قدمي^٤ يستعير وجه شيكهار . هل أنت

مصغ إلى ؟ وما قولك فى قصتى هذه ؟ »

وبمناسبة مقابلتي اعتدت أن ألبس سرا طيلساناً أصفر وكنت أعقد حول شعري عقداً أبيض من أزهار الياسين، ثم أنناول سراًني وأذهب إلي مكاني الذي أفتنه تحت الأشجار

إنك ترى بلا شك أن مشاهدة جالنا في المرأة يكون على ممر الزمن مملاً ؟ ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل لأنني لا أنظر بعيني نفسيهما لأنني كنت في الوقت نفسه أحد الشخصين فكنت أختبر كما يختبر الطبيب وكنت أطيل النظر وأفنت وأشتعل بنار الحب . ورغمما من انتباهي وحذري أغار أنين على فؤادي وسمع له صوت كنسيم الصبا في المساء

ومن هذا العهد كففت عن الشعور بالوحدة وفي أثناء نزهتي كنت أتبع بنظراتي عبث أصابع رجلتي الصغيرة الرقيقة بالرمال الناعمة ، وكنت أسائل نفسي ماذا يكون شعور الدكتور لو كان حاضراً . كنت أمثل الشمس وقت الزوال مغيرة على الزرقاء بنورها الواج ، ولم يعكر صفاء السكون غير صياح متقطع لنسر بعيد وصوت وراء سياج الحديقة لبائع خواتم من البلور وهو ينادى نداء شجياً : فرشت على السكّال ملاءة بيضاء لأستاق عليها وأسندت رأسي إلى ذراعي وأرحت ذراعي الأخرى فوق الملاءة بشكل رشيق ، وقد تخيلت أن شخصاً يثنى لاحظ وضع يدي الشائقة فشد عليها بين يديه ووضع في راحتي قبلة ذهبية وابتعد يبطء . وإن وقفنا الحديث هنا فما رأيك ؟

— « يكاد يكون ختاماً مقبولاً » وقد أجبته بلهجة حالم . قالت : وستبقى الصورة ناقصة قليلاً ولكنني سأقضى بقية الليل في إصلاح هذا النقص — ولكنها تكون جافة . وكيف تدخل فيها الضحك ! وكيف تصل إلى جمل الهيكل العظيم يضحك وينكر ملامحه ؟

— دعني الآن أنعم الحديث ، وما أنت وجد الطبيب بمض الرضى حتى أخذ غرفة أرضية من منزلنا وأعدها لميادته . وفي هذا الزمن كنت ألهو بسؤاله عن تأثير العقاقير والسموم والكمية السكافية لقتل رجل ، فكانت هذه الأسئلة ملائمة لطبيعته فأجاب عليها بفصاحة ولباقة ، وكان من نتيجة هذه المحادثات أن صارت عندي فكرة الموت عادية لا تثير أي اهتمام ، وبذلك توطن الحب والموت على الباطني . إن حديثي قد قارب النهاية لأننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة

— كما أننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة من الليل — وقد لاحظت بعد مدة من الزمن قلقاً غريباً يساور الطبيب وظهر عليه كأنه يحجل من أمر يريد أن يخفيه عني . وقد حضر مرة بشباب فاخرة وهندام ظريف ليستعير عربة أخى

« كنت فريسة لتطلع شديد فصممت على سؤال أخى . وبعد أن دار بيننا الحديث من الشرق إلى الغرب قلت له : خبرني بالحقيقة يا أخى ، أين يذهب الطبيب الليلة في عربتك ؟

فأجاب أخى باختصار : « إلى الموت »

— خبرني بكل صراحة أين ذهب ؟

— « ذهب ليتزوج » وقد أجاب أخى بطريقة أكثر وضوحاً

— أحقاً ما تقول ! وقد تفوهت هذه الكلمة مصحوبة بهمة طويلة

وقد علمت في آخر الأمر أن الخطب كانت غنية وورثت ميراثاً عظيماً سيفدق على الطبيب ثروة طائلة ولكن لم أهانني باخفائه هذا المشروع ؟ هل سألته يوماً أن لا يتزوج حتى لا يصعب فؤادي ؟ ولكن الرجال لا يؤمنون . لم أعرف في حياتي إلا رجلاً

الشجيرة ، ثم ذهبت إلى خدرى وابست ثوب الزفاف المنسوج من خيوط الذهب والفضة وتزينت بحلي ووضعت على شمرى الملامة الحمراء التي تميز الزوج وذهبت إلى الأشجار لأهبي مضجى .

وكان الليل شائفا وقد ذهبت رياح الجنوب المنعشة بمتاعب الدنيا وقد تضوع شذا الياسمين والورد حتى غمر البستان البشر والفرح

وكانت أصوات الموسيقى تصل إلى سمى أضعف مما كانت عليه وطفق لآلاء القمر آخذاً في النقص وانمحت من ذا كرني الدنيا وصورة بيت الأسرة كأنها وهم تبدد ثم أغمضت عيني وأنا مبتسمة .

وقد تخيلت أن الدين سيقبلون لمشاهدة بسمي الأخيرة المنطبعة على شفتي كأنها آثار نبذ وردى ، وأنى سأدخل في مخدع زفاني الدائم ووجهي مضى بنفس ابتسامه .

وأسفاه على مخدع زفاني وثوب عرسي المنسوج من الزخرف واللجين ! لأنى حينما استيقظت من قرعة المظام التي يخيل إلى أنها صادرة من هيكلى العظمى وجدتني في حضرة ثلاثة غلمان يتعلمون تشريح المظام في هيكلى . وفي هذا الصدر الذي كانت تخفق فيه أفرأحى وأترأحى والذي تفتحت فيه وريقات زهرة صباى كان العلم يبين بسبابته عظامى واحدة فواحدة . هلا وجدت أترأ من هذا الابتسام الذى درسته بكل عناية ؟

وكيف وجدت قصتي ؟

— إنها للذيذة محبوبة .

وفي هذه الآونة ابتداء ينطق أول غراب

ثم سألت : « هل أنت هنا ؟ »

فلم يرد على أحد

واخترقت أشعة الصباح مخدعى فأضاءته .

محمد طاهر مهابج

واحداً ، ولكن لحظة كانت كافية لكشف هذه الحقيقة .

ولما رجع الطبيب من عمله ونهياً للرجل قلت له والضحك بغالبتي : « سنزوج في هذا المساء أيها الطبيب ؟ »

— إن فرحى قد أربكه بل زاده غيظاً وحنقاً

— ماذا جرى فانى لا أرى الأور كستر ؟

— فأجاب بتأوه : هل الزواج حادث مفرح ؟

« عاودني ضحك عنيف لا يغلب ثم قلت له :

لا ! لا ! فذاك من المستحيل أن يمان زفاف

دون أضواء وموسيقى !

ثم ضايقت أخى حتى أعد معدات المرس وجعله بهيجا سارا .

ولم انقطع لحظة عن التندر بالخطب وعن الوقائع التى ستمر بها وعن حالتى تلقاء هذه الواردة الجديدة .

— خبرني أيها الطبيب ، هل ستستمر في جس نبض مرضاك ؟

بخ بخ ! ولو أن عمل العقل الباطن غير منظور لاسيا عند الرجال فانى أستطيع أنؤكد بأن قولى سيصمى فؤاد محدثي كالحراب الفولاذية .

إن الزواج سيظهر بعد قليل في الليل وقبل الذهاب شرب الطبيب هو وأخى كاساً من النبيذ كماذهما اليومية ، وفي هذا الوقت طلع القمر

« ثم تابعت حديثي قائلة والابتسام بملووجهي :

هل نسيت زواجك ؟ قد آن المسير »

وقد فاتني بمض التفصيل ، فانى قبل هذه الآونة قد هرولت إلى العيادة وأخذت منها مسحوقاً ووضعت خفية في كاس الطبيب .

لقد أفرغ الطبيب كأسه بنهلة واحدة ثم قال لي بصوت متهدج من التأثر مصحوب بنظرة اخترقت فؤادى : « سأذهب » . ابتدأت الموسيقى بأنغامها